

سلسلة التفسير

سورة الكهف (29)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا أكرم الأكرمين. أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه. نسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك.. وبعد:

فنحن في تفسير آيات من سورة الكهف.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا * وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا * أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا * قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا * ذَلِكَ جَزَاءُهمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُرُوءًا﴾ [الكهف: 99-106].

يعود بنا القرآن الكريم ليدكرنا باليوم الآخر ذاك اليوم الذي لا ينفك ذكره في القرآن أبداً من أوله إلى منتهاه.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ إِذَا زُلْزِلَتْ عُدِلَتْ لَهُ بِنِصْفِ الْقُرْآنِ» [الترمذي].

يرى بعضهم أن من قرأ سورة الزلزلة مرتين كان له بركة من قرأ القرآن كله، غير أن بعض العلماء قالوا: في السورة إشارة إلى أن الحديث عن يوم القيامة واليوم الآخر يدخل فيه نصف كلام القرآن.

بعد أن ذكر الله لنا قصة أصحاب الكهف، وقصة سيدنا موسى والخضر عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وقصة ذي القرنين، ذكّرنا الله باليوم الآخر.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ .

في قراءتنا لهذه الآية لا يخطر في بالنا عند قولنا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إلا يوم القيامة وليس غيره من الأيام مع أن الله لم يذكره صراحة!!

إن تنوين العَوْضُ في كلمة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يُعَوِّضُ عن اسم يوم القيامة، فصار المعنى (وتركنا بعضهم يوم القيامة)، ويتبادر هذا المعنى الفوري للمسلم؛ لأن القرآن الكريم ربّي المسلم على استحضر يوم القيامة حتى صار معروفاً لديه من الإشارة.

يطلب من المسلم أن يضيف إلى هذه المعرفة العلمية معرفةً عملية، فكما أنه لم يخطر على باله في الآية غير الحديث عن يوم القيامة، كذلك يطلب منه أن لا يغيب استحضر يوم القيامة عنه في أعماله، وأشغاله اليومية، وفي بيته وعلاقته الزوجية... فإن هذا من صفة الله الأنبياء كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: 46].

لعل اللادنيين ومن لا يؤمن بما بعد الموت لا يهمهم هذا الحديث، ويصفونه بأنه مدعاة للتواكل أو الكسل أو الرّجُم بالغيب، غير أن المؤمنين لا يغيب عنهم ذكر الدار الآخرة؛ لأن مستقرهم ومعيشتهم الحقيقية وهم على يقين بأن كل ما يجري في هذه الحياة إنما هو مرور وعبور، فتجده في كل حركة وَسَكَنَةٍ وقيام وقعود وكلمة وصمت يستحضر ما موقفه أمام الله يوم القيامة. - مع أن للزمن والوقت قيمة في الاقتصاد، غير أن المسلم لا يأخذ فائدة على قرض يعطيه لأنه وضع في حسابه يوم الآخر، مع علمه أنه لو استثمره في تجارة أو صفقة لعاد عليه بالفوائد الربحية. لما كان البيع من عقود المعاوضات أجاز له الإسلام أن يأخذ ثمن الوقت، ولما كان القرض من عقود التبرعات لم يُجْزَ له الإسلام أخذ ثمن الوقت.

- من تبرع بمبلغ مالي فهو خاسر من الناحية الاقتصادية والمالية والمادية، لكن عندما يحسب حساب الدار الآخرة كان هذا التبرع رصيماً لذلك اليوم.

- من لا يؤمن باليوم الآخر ترى كل عمله لهذه الحياة الدنيا فيأخذون الربا، ويكره التبرعات وإن تبرع يسعى ليذكر اسمه على المنتج أو المسجد...

المسلم جاءته هذه التربية من آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، ففي زحمة هذه الحياة والزمن المنفتح لا يوجد شيء يضبط هذا الإنسان، وما من طريقة لتلا غرق ابنك بمهاوي الرذيلة، وينجرف بتيارات المعصية إلا بـ:

أ. صلته بالله تعالى، ومراقبته له، باستحضار عظمة الله تعالى بين جنبيه.

ب. مصاحبة الذاكرين وأهل الصلاح.

○ انقطعت الكهرباء في بريطانيا لدقائق، فسُرقت بعض البنوك، وكان السارق لأحدها هو

مدير البنك نفسه.

○ ترى الشرطي الموكل بضبط الأمن هو نفسه الذي يشيع الفوضى. لا يستقيم إيمان أحدنا

ومشاه إلا أن يستحضر يوم القيامة بين عينيه.

ويعينك على استحضار يوم القيامة:

1- الإكثار من ذكر الله تعالى:

أكد أهل التربية الروحية على الذكر؛ لأنه يَبْقِي قلبك حياً، ومن دونه يموت وقد قال الله

تعالى فيه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

فلا يلين قلبك ولا يستكين ويطرب ويهدأ ويهنأ ويرتاح ويسر إلا بذكر الله تعالى، فتري

قلب تارك الذكر ميت فيفعل من السوء والفحش، ما تتعجب منه نفسك سائلاً إياها هل هذا بشر

أم بهيمة؟! ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ

لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179].

2- مجالس العلم:

ما سمي الإنسان باسمه إلا لأنه ينسى، فيأتي مجلس العلم ليذكّر الناسي ويُعلّم الجاهل.

قد ينوي أحد أن يغدر بأخيه فإذا جلس لاستماع العلم تذكر وخاف وارتدع، وقد يقصر

الابن في طاعة والديه أو يغضبهما فيأتي مجلس العلم ليذكره بيومئذ.

يقول الله تعالى: ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55].

جزء من برنامج الصالحين اليومي ذكر ﴿يَوْمِذٍ﴾ ، فإذا صاحبته أعطوك نفحة مما عندهم.

﴿يُمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ .

قال المفسرون: شبههم بموج البحر الذي يضرب بعضه ببعض.

﴿وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ .

كل الخلائق سيجتمعون مع بعض فترى الظالم مع المظلوم، والقاتل مع المقتول، والسارق مع المسروق... وسيجتمع المحسن مع من أحسن إليه، والمعلم مع التلميذ، والطبيب مع من نفعه وداواه...

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَأَلَهُ سَائِلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا الْعَبَّاسِ، هَلْ لِلْقَاتِلِ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَالْمُعْجَبِ مِنْ شَأْنِهِ: مَاذَا تَقُولُ؟! فَأَعَادَ عَلَيْهِ مَسْأَلَتَهُ فَقَالَ لَهُ: مَاذَا تَقُولُ؟! مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ لِهَ التَّوْبَةِ؟ سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يَأْتِي الْمَقْتُولُ مُتَعَلِّقًا رَأْسُهُ بِأَخْذِ يَدَيْهِ، مُتَلَبِّيًا قَاتِلَهُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى، تَشْجُبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا، حَتَّى يَأْتِيَ بِهِ الْعَرْشَ، فَيَقُولُ الْمَقْتُولُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ: هَذَا قَتَلَنِي؟ فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَاتِلِ: تَعَسْتَ، وَيُذْهَبُ بِهِ إِلَى النَّارِ» [الطبراني].

عَنِ الشَّرِيدِ بْنِ سُوَيْدٍ الثَّقَفِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا عَبَثًا، عَجَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْهُ يَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّ فُلَانًا قَتَلَنِي عَبَثًا، وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِمَنْقَعَةٍ» [الإمام أحمد وابن حبان والنسائي].

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: مَرَّ ابْنُ عُمَرَ بِفَتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْرًا، وَهُمْ يَرْمُونَهُ، وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلِّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: «مَنْ فَعَلَ هَذَا!! لَعَنَ اللَّهُ، مَنْ فَعَلَ هَذَا، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ مَنْ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا» [مسلم].

غَرَضًا: أي هدفًا.

فإن كان العصفور سيأتي بمن قتله يوم القيامة فما بالك بالإنسان المقتول، ما بال الظالم الذي أخذ حق أخواته من الميراث؟!!

يتخاصم شريكاً فيطلب الأول أن يحكم بينهما شيخ الشريك الثاني، فيُخَرِّجُ الشريك من طلبه ويرفض خجلاً من شيخه، مع أنه بشر مثله، فكيف يوم القيامة والحكم هو رب العالمين؟! لنحرص أن يكون اجتماعنا يوم القيامة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن المتحابين على منابر من نور فيأخذ الأخ بيد أخيه ليشفع له عند الله عز وجل.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ .

كان لرجل مؤمن صديقاً لا يؤمن بالله ولا بالساعة فكان كثيراً ما يحذر المؤمن صديقه من وعيد الله وحسابه، ومن عذاب القبر وهو لا يأبه لكلامه، ثم تعاهدا أن يزور من مات أولاً الثاني في منامه ليخبره بما رأى من عذاب قبر أو حساب.

صعد الكافر إلى شجرة فسقط عنها ومات، وبعد أيام رآه المؤمن في منامه فسأله عما شاهد في دار الحق؟ فقال الكافر: كل ما أخبرني به من عذاب القبر لم أجده، فما أن سقطت من الشجرة، حتى ذهبت إلى جهنم فوراً من غير عذاب قبر أو حساب.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ .

كلما أرسلنا لهم أحداً ليدكرهم لم يتذكروا، ولا يحضرون دروساً أو مواعظ؛ لأنهم يشعرون استماعهم كأنه خانق لهم، فمثل المؤمن في المسجد كالسمك في الماء، والمنافق في المسجد كالطير في القفص.

قال تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 171] فمع سمعهم وبصرهم ونطقهم غير أن القرآن وصفهم بصمهم عن سماع الهدى، وبكمهم عن ذكر الله، وعُميهم عن رؤية آيات الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 198].

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ .

هيا الكفرة أنفسهم لتكون لهم المكانة في الآخرة كما هي لبعضهم في الدنيا، فيدفعون عن أنفسهم بها وبما لهم النار والعذاب.

﴿نُزُلًا﴾ : ضيافة.

﴿قُلْ هَلْ تُبْئِكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ .

تدلنا الآية على أن هناك من يعمل غير أن عملهم خاسر بل أخسر، فهم يعملون غير أنهم لا يؤجرون.

ومثلهم كمثل من أراد السفر نحو الشمال واستعد لذلك بكل الطرائق غير أنه فعل أمراً صغيراً بأن أدار المقود نحو الجنوب، وأخذ يقود بسرعة عالية فهل سيصل إلى هدفه الذي وضعه مع ما جهزه من ضروريات العمل؟!

يولد أحدنا ومادته العلمية، وخبرته الحياتية، وقدرته العقلية، والمالية، والاجتماعية، ضعيفة ومع الزمن تنمو تلك القدرات وتأتيه فلسفات من الشرق والغرب فتري كل واحد يذهب مع إحدى الفلسفات غير أن أحدهم لا يكتشف خطأه إلا بعد عمر طويل فيرى حاجته للعودة إلى الله. من كان في بداية عمره فليجعل سعيه بالطريق الذي يريده الله، فمن أراد اختيار غير هذا الطريق فليجرب لكن الخسارة ستكون كبيرة جداً.

أكرمنا الله وتفضل علينا أن ولدنا مسلمين، لا ملحدين ولا عباد بقر أو أوثان، وبقي علينا أن نبقي عجلتنا على السكة التي توصلنا إلى طريق رب العالمين عند الشهوات والشبهات، فلا يعقل أن يترك الإنسان دينه لأجل زبي أو إرضاء صديق.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ» وَقَالَ: «اقْرَؤُوا»، ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ [البخاري ومسلم].

عَنْ زُرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سَوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفُوهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟» قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثَقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أَحَدٍ» [الإمام أحمد وابن حبان].

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

والحمد لله رب العالمين.